# انغام المساء

بقلم الدوس هكسلي

ما هي الصلة الموجودة بين الظواهر الكونية والانغام الموسيقية ؟ هل هناك ظروف معينة وحالات ، نكون فيها اكثر استعدادا لسماع الموسيقى ؟ كأن نستمع اليها في الليل مثلا ؟ يحاول الكاتب الكبيرالدوس هكسلي الاجابة على هذه الاسئلة في مقالته « انغام المساء » . ثم ينتقل الى مشكلة اكثر اهمية ، الا وهي مشكلة التعبير الفني ،سواء أكان هذا التعبير ممثلا في أبيات من شعر شكسبير ، او لحن من الحان بيتهوفن . يقول هكسلي اننا لا نستطيع ان « نشرح » العملالفني وان الشرح بمثابة « تشويه » لهذا العمل .

وتثير مقالته في نفوس البعض مشكلة لها دلالتها واهميتها الا وهيمشكلة « المعاناة » معاناة العمل الفني ( قصيدة ـ لوحة ـ قطعة موسيقية ). ان معنى القصيدة يمكن في تعبيرها وموسيقاها والروحالتي بثها الشاعر في جنباتها . وانطباع اللوحة يكمن في الوانها وملامحها وطريقة الرسام في وضع الخطوط. علينا ان نمر بتجربةالعمل الفني : كأن نقرأ القصيدة لا ان نقرأ عنها ، وان نشاهد صورة الرسام بدلا من السماع عنها من فم الناقد الفني، وان نستمع الىالقطعة الموسيقية دون التردي في مهاوي تفسيرات الشارحين وتأويلاتهم .

هذه هي الازمة التي تواجهنا في عصرنا الحاضر : نسمع بالاديبونقرأ تاريخ حياته ونطلع على نقد النقاد لمؤلفاته ولا ننسى ان نستوعب الملخصات التي تنشرها الصحف والمجلات لكتبه . ثم نتوقف ولا نذهبالى ابعد من هذا . يجب ان نمر بتجربة المؤلف عن طريق العيش معه ، مع عمله الفني الذي صهر روحه وروح شعبه وجيله ، او روحالانسانية جمعاء .

لقد اطلقها الدوس هكسلي صيحة مدوية « ان كلماتنا نحن لا تستطيع ان تعبر تعبيرا ملائما عن معاني كلمات الآخرين » .

**المترجم**

تلكم أمسية من أمسيات شهر يونيو ... غاب عنها القمر ... بيد ان النجوم قد اكسبتها مزيدا من الحيوية ، وتعطرت الظلمة من اللفحات الوانية التي تصدر عن براعم أشجار الزيزفون .. وتعطرت برائحة التربة الرطبة والخضرة التي لا ترى من أشجار الكروم. الصمت يسود ، غير انه صمت تتردد فيه أنفاس البحر الناعمة . ومن بعيد يسمع صوت قطار يعبر كيان الليل ألدافيء النابض ، برقة ولطف .

تقول ان هذا الليل تستحب فيه الموسيقى . بيد ان معي موسيقى في صندوق ، قد اقفل دونها الغطاء، فكأنها جني في زجاجة مما سمعنا عنه في « الف ليلة » . وسرعان ما تنفلت هذه الموسيقى من سجنها بلمسة من يدك . واقوم بالاجراءات السحرية اللازمة ، وفجأة .. تتصاعد الى السماء اللاقمرية مقدمة بينيديكتوس Benedictus من Missa Solemnis لبيتهوفن . مصادفة معجزة ! لقد اخترت الاسطوانة في الظلام ولم اكن اعرف القطعة التي سيعزفها الجرامفون .

بنيديكتوس... موسيقى مباركة ومبارِكة ، تشبه الى حد ما هذا المساء ، وهذه الظلمة العميقة النابضة التي تتدفق فيها الالحان ، تارة في انبثاق ، وتارة في ايقاعات متشابكة . هذه الموسيقى تعادل الليل كما تعادل خلاصة الرائحة عطر الزهرة .

في قلب الاشياء غبطة ما ، دفينة لا ندركها ، لا نلمسها الا في فترات عرضية « هذا المساء بالنسبة اليَّ احدى هذه الفترات . » نلمسها في غموض ، او في عمق ـ ولكن ! واأسفاه ! انها تولي بسرعة . وفي بينيديكتوس يعبر بيتهوفن عن ادراكه لهذه الغبطة . وموسيقاه صورة لهذه الامسية على شاطيء البحر الابيض ، او على الارجح هي صورة للغبطة التي ينبض بها قلب هذا المساء . انها غبطة شفافة .

« بنيديكتوس .. بنيديكتوس .. »وتتبادل الاصوات التقاط هذا اللحن الذي مهدت له الاوركسترا وتناوله صوت منفرد في ابداع وروعة ، انه صوت الكمان ( ذلك لان الغبطة تميط عن نفسها اللثام للروح المنفردة .) « بنيديكتوس .. بنيديكتوس » .. وفجأة تخرس الموسيقى ويأوى الجني الهارب الى قمقمه ، ويخدش صمت الظلام صوت ابرة الجرامفون وهي تدور وتدور في اصرار كاصرار الذبابة الهائمة .

وحينما كنا نتعلم اللغة الانجليزية بالمدرسة كانوا يقولون لنا ان علينا ان نشرح « بعبارة من عندنا » فقرة من مسرحية لشيكسبير ! وهكذا نجلس نحن الصبية الذين لوثهم المداد لنترجم قولة شكسبير : « وفي خزانة الثياب تعانقت أردية الحرير » نترجمها الى عبارة من عندنا لنقول : تستقر الملابس الحريرية الانيقة في الدولاب » . ونترجم قوله في هاملت : « لان تكون او لا تكون » الى قولنا : « اني أفكر فيما اذا كان من الواجب ان انتحر ام لا » . وحين ننتهي من ذلك كله نسلم اوراقنا ، ويمنحنا استاذنا الدرجات بقدر ما عبرنا في « كلمات من عندنا » عن معنى اشعار شكسبير المجيد .

اننا لا نستحق اية درجة على هذا المجهود حتى لو قمنا بشرح مئة بيت . لا يستطيع التعبير عن معاني شكسبير الا كلمات شكسبير نفسها . ان مضمون اي عمل فني لا يمكن ان ينفصل عن شكله . ان حقيقة العمل الفني شيء وجماله شيء آخر ، بيد انهما يمتزجان بطريقة غريبة غامضة . بل ان التعبير اللفظي عن منهج ميتافيزيقي ا واخلاقي يكاد يكون عملا فنيا ، مثله في ذلك مثل قصيدة حب . وحين يعبر جويت Jowett عن فلسفة افلاطون « في عبارات من عنده » فليست هذه فلسفة افلاطون . كما ان تعاليم سانت بول ليست بتعاليمه اذا ما عبر عنها « بيلي ساندي »

ان كلماتنا نحن لا تستطيع ان تعبر تعبيرا ملائما عن معاني كلمات الاخرين ، فكيف بنا اذا اردنا التعبير عن معاني موسيقية او فنون تشكيلية ؟ وعلى سبيل المثال نتساءل : ماذا ( تقول ) هذه الموسيقى ؟ في استطاعتك وانت تستمع الى كونشرتو ان تشتري برنامجا تحليليا يخبرك بما تريد بدقة .. بدقة متناهية .. وهذه المشكلة ! ستجد لكل محلل تفسيره الخاص . تصور حلم فرعون يقوم بتفسيره يوسف الصديق ، ثم سحرة مصر ، ثم فرويد وريفرز وادلر ويونج ووهل جيموث : سيقول الحلم حينئذ اشياء كثيرة مختلفة . بيد انها لن تفوق في اختلافها ما دار حول السيمفونية الخامسة من جدال في التحليل .

لقد تضايق بعض النقاد من هذه التلال التي تألفت من جراء المعاني والتفسيرات المزعومة ، ومن ثم قالوا محتجين ان الموسيقى والرسم لا يمثلان الا كيانهما — وان هذه الفنون اذا ( قالت ) شيئا فانما تتحدث على سبيل المثال عن الايقاع، وقيم الالوان ، والاجسام ذات الابعاد الثلاثة ، ويعتقد هؤلاء النقاد المدققون ان من العبث ان نقول ان هذه الفنون تتحدث لنا عن المصير البشري او العلم بأكمله .

واذا ما سلمنا بما يقوله هؤلاء النقاد لنظرنا الى الرسامين والموسيقيين على انهم وحوش وليسوا بشرا . ذلك لانه من المستحيل ان تكون انسانا بشريا دون ان تكون لك آراء ما ازاء هذا العالم العريض . كما ان من الغريب ان تكون انسانا بشريا ولا تعبر عن هذه الآراء ، ولو كان ذلك عن طريق الايماء .

ان الموسيقى ( تتحدث ) عن اشياء في هذا العالم ، لكنها تتحدث بصورة موسيقية خاصة . وان اية محاولة تبذل للتعبير عن مضمون الموسيقى في « عبارات من عندنا » مآلها الفشل . اننا لا نستطيع ان نفصل الحقيقة التي تتضمنها قطعة موسيقية، ذلك لانها حقيقة جمالية لا تنفصل عن الشكل الذي يحتويها . واقصى ما نستطيع القيام به هو ان نشير عن طريق التعميم الى طبيعة الحقيقة الجمالية الموسيقية وان نرشد الذين يبحثون عن الحقيقة الى النص الموسيقي الاصلي .

ولهذا فان تمهيد بنيديكتوس يعبر عن الغبطة ( او البركة ) التي تكمن في قلب الاشياء . لكنا — بكلماتنا — لا نستطيع ان نذهب الى ابعد من هذا . فاذا ما بدأنا نشرح في « عبارات من عندنا » شعور بيتهوفن الحقيقي ازاء هذه الغبطة ، وكيف لمسها ، وما رأيه في طبيعتها ، فسرعان ما نجد اننا ندون هراء غنائيا على طريقة المحللين الموسيقيين للموسيقى البروجرامية . واذا ما اردنا ان نعرف بدقة مفهوم بيتهوفن لهذه الغبطة التي تكمن في قلب الاشياء فلا شيء يسعفنا غير الموسيقى ، وغير موسيقى بيتهوفن نفسه، وغير هذه القطعة بالذات .

اذا ما اردنا ان نعرف ، فعلينا ان ننصت . وافضل ان يتم ذلك في امسية من امسيات شهر يونيو .

القاهرة ترجمة : محمد عبدالله الشقفي


# الاسلام في العالم

١ — المسلمون في المتوسط الشرقي .

٢ — المسلمون في آسيا .

دار المكشوف ، بيروت

باشراف الدكتور مصطفى خالدي

- أول مجلة من نوعها في البلاد العربية
- تعالج فن التمريض وشؤون الممرضات
- تتضمن احدث المعلومات القيمة وقصص وطرائف طبية .
- يحررها نخبة من اهل الطب والادب
- رغبة عنها لكل طبيب وممرضة ومثقف وربة بيت .
- لا تدع أن تحجز نسختك .

ثمن العدد ليرة لبنانية أو ما يعادلها

ملتزم التوزيع

مؤسسة المطبوعات الحديثة